﴿*وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٥﴾ [الرّعد: 5]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ من عجائب الخلق المشاهدة إلى عجائب القول المُنكر المسموعة

لمّا ثَبَتَ بما أقام سبحانه من الأدلّة والبراهين المشاهدة على عظيم قُدرته بما أودعه من مظاهر الحكمة، وعجائب السُّنن في ملكوته الّتي لا يقدر عليها سواه، وأنَّ هذا إنَّما هو فعلُ واحدٍ قَهّارٍ مُختار يوجِدُ المعدوم، ويُفاوت بين ما تقتضي الطَّبائع اتحاده، كان إنكار شيء من قدرته عجبًا، فقال عطفًا على ما سبق: ﴿وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ﴾[1]، فهو انتقالٌ من الحديثِ عن عجائب الخلق الدّالّة على القدرة المطلقة، إلى ذِكر قولٍ عجيبٍ عن فكرٍ لئيم وعقلٍ عديم، فناسب أن يذكرَ بعد عجائبِ الخلقِ المشاهدة، عجيب الكلام المُنكَرِ المسموع، لبيانِ بُطلانِ معتقداتهم، وفساد قيلهم.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَعۡجَبۡ﴾: العين والجيم والباء تدلُّ على غرابة حال الشَّيءِ لكونه دقيقًا، لم يُعْهَد مثلُهُ[2] يُقال: عَجِبَ يَعجَب عَجَبًا، والعَجَبُ النَّظَرُ إلى شيءٍ غَيْرِ مأْلوف ولا مُعتادٍ[3]، والتَّعجُّب ممّا خَفيَ سببه، ولم يُعلَم، حيرة تعرض للإنسان عند سبب جهل الشّيء[4]، والمعنى هُنا: إن يَقَعْ منك عَجَبٌ[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/281.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل، والرّاغب، المُفردات: (عجب).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (عجب).
(4) الزَّبيديّ، تاج العروس: (عجب)، والحميريّ، شمس العلوم: 7/4380.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/99.

2) ﴿ٱلْأَغْلَٰلُ﴾: جمعُ غُلٍّ، والغُلُّ: مختصٌّ بما يُقيَّدُ به، فيجعلُ الأعضاءَ وسطَه[1]، وأصلُ (غلل): تدرُّعُ الشّيءِ وتوسُّطُه[2]، أو: هو طوقٌ أو حَلْقَةٌ مِنْ حديدٍ أو غيرِه تُحيطُ بالعنقِ تُناطُ بها سلسلةٌ مِنْ حديدٍ[3]، والمعنى هُنا: الطَّوْقُ الّذي تُشَدُّ بِهِ اليَدُ إلى العُنُقِ[4].

3) ﴿أَصْحَٰبُ﴾ جمعُ صاحب، والصّاحبُ: المُلازِم؛ إنسانًا كان أو حيوانًا أو مكانًا أو زمانًا[5]، ومادَّة (صَحِبَ) تدُلُّ تصاريفُها على مُلازمةِ الشَّيء بقوَّةٍ[6]، وتُطلقُ على مطلقِ المقارنةِ، ومجرَّد الاقتران[7]، ومِنْ هذا البابِ: سُمّيت الزَّوجَةُ صاحبةً، كما في قول الله تعالى: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ۝١١ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ۝١٢﴾ [المعارج: 11 - 12]؛ لملازمَتِها زَوْجَها مدَّةَ الحياة الدُّنيا، وأصحاب النّار في القرآن الكريم؛ فالمُرادُ أهلُها المعذَّبونَ فيها، إلّا في موضعٍ واحد؛ فيُرادُ به: خَزَنَتُها، وهو الواردُ في قول الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾[8] [المدثر: 31]، والمُراد بأصحاب النّار هنا: أهلها الّذين يلازمون نارَ جهنَّم ملازمةً دائمةً لا تنقطع.

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

العجب من حال المُكذّبين بالبعث وبيـان مآلهم يوم القيامة

تُبيِّن الآيةُ أنَّ أمر المشركين مع هذه الدَّلائل لعجب، وإن تتعجَّب - أيُّها الرَّسول - من شيء، فالعجب الأشدُّ من قولهم: أإذا متنا وصِرنا ترابًا وعظامًا بالية نَخِرَةً أنُبْعَث ونُعاد أحياء؟ أولئك المنكرون

(1) السَّمين الحلبيّ، عُمدة الحفّاظ: (غلل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (غلل).
(3) الرّاغب، المُفردات، والسَّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفّاظ: (غلل).
(4) القُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/284.
(5) الرّاغب، المُفردات: (صحب)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: (صحب).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (صحب).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (صحب).
(8) السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 2/158.

للبعث بعد الموت الّذين كفروا بربِّهم، فأنكروا قُدرته على بعث الموتى، وأولئك توضع السَّلاسل من النّار في أعناقهم يوم القيامة، وأولئك هم أصحاب النّار، وهم فيها ماكثون أبدًا، لا يلحقهم فناء، ولا ينقطع عنهم العذاب[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيّ:

معنى الواو وعلاقتُها بالمتقدِّم:

الرَّد على مُنكري البعث الّذين بيَّن الله لهم الأدلّة القاطعة والحجج السّاطعة

قولُه تعالى: ﴿وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ﴾ عطفٌ على جملة ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ﴾، فلمّا قُضي حقُّ الاستدلال على الوحدانيَّة؛ نُقِلَ الكلام إلى الرَّدّ على مُنكري البعث، وهو غرض مستقل مقصود من هذه السّورة، وقد أُدمج ابتداءً خلال الاستدلال على الوحدانيَّة بقوله: ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ﴾ تمهيدًا لما هُنا[2].

سِرُّ ذِكْرِ التَّعجيب وموقعُه ممّا سَبَقَ:

صياغة التَّعجيب من مُنكري البعث؛ لأنَّ الأدلّة السّالفة لم تُبقِ عذرًا لهم

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ﴾ تقدير الكلام: إن تعجب - يا مُحمَّد ﷺ - فقد عَجِبتَ في موضع العجب؛ لأنَّهم لمّا اعترفوا بأنَّه تعالى مُدَبِّر السَّماوات والأرض وخالق الخلائق أجمعين، وأنَّه هو الّذي رفع السَّماوات بغير عمد، وهو الّذي سخَّر الشَّمس والقمر على وفق مصالح العباد، وهو الّذي أظهر في العالم أنواع العجائب والغرائب، فمَن كانت قدرته وافية بهذه الأشياء العظيمة؛ كيف لا تكون وافية بإعادة الإنسان بعد موته؟ لأنَّ القادر على الأقوى الأكمل، فأن يكون قادرًا على الأقلِّ الأضعف أولى، فهذا تقرير مَوْضِع التّعجُّب[3]، فصيغ بصيغة التَّعجيب من إنكار مُنكري البعث؛

(1) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 354، ونُخْبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 249، وجماعَةٌ من علماء التَّفسير، المخْتَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 249.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/89.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/9.

لأنَّ الأدلَّة السّالفة لم تُبْقِ عذرًا لهم في ذلك، فصار إنكارهم مَحَلَّ عجب المُتَعَجِّب[1].

معنى ذِكرِ الشَّرطِ مع تحقُّقِ وقوعه:

تقريرُ الاتِّصاف بالتَّعَجُّب ممَّن أنكر البعث بعد أن رأى دلائله في الخَلْقِ

ليس المقصود من الشَّرط في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ تعليق حصول مضمون جواب الشَّرط على حصول فعل الشَّرط، كما هو شأن الشُّروط؛ لأنَّ كون قولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا﴾ عجبًا أمرٌ ثابت، سواء عجب منه المُتَعَجِّبُ، أم لم يَعْجَب، ولكنَّ المقصود أنَّه إن كان اتصاف بتعجُّبٍ، فقولهم ذلك هو أسبق من كُلِّ عَجَبٍ لِكُلِّ مُتَعَجِّب[2]، فمدلول الشَّرط (إنْ يقع منك عجبٌ، فليكن من قولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا﴾، وكان المعنى الّذي ينبغي أن يُتَعَجَّب منه هو إنكار البعث؛ لأنَّه تعالى هو المخترع للأشياء، ومَن كان قادرًا على إبرازها من العدم الصِّرف؛ كان قادرًا على الإعادة[3].

نكتةُ التّعبير بالمضارع:

لا مكانَ في القلبِ لألفةِ المُنكَرِ، أو الرِّضا بوجودِه

جاء فعل العجب بصيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾، والمعنى: إن تجدَّد منك التَّعَجُّبُ لإنكارهم البعثَ؛ فاستمرَّ عليه؛ فإنَّ إنكارهم ذلك من الأعاجيب[4]، فصدور ما يُتعجَّب منه في الأمور العظمى، يُستنكر على الدَّوام، ولا يُؤلف العجبُ ممّا يُتعجَّب منه فيما يتعلَّق بأصول الدّين، فلا مكان في القلبِ لألفةِ المُنكرِ، أو الرِّضا بوجوده.

توجيه حذف مُتَعَلَّق فعل العجب:

عجبٌ ممَّن يُثبت الأصعبَ ويُنكِر الأهون فيما يعتقدُه

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾؛ أيْ: إن تَعْجَبْ من إنكارهم النَّشأة الآخرة مع إقرارهم بابتداء الخلق، فعجب أمرهم!

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/89.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/89 - 90.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/351.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/100.

وقد كان المشركون يُنكرون البعث مع إقرارهم بابتداء الخلق من اللّه تعالى، وقد تقرَّر في القلوب أنَّ الإعادة أهون من الابتداء، فهذا موضع العجب[1]، ويحتمل أن يكون معناه: وإن تعجب من تكذيب المشركين واتخاذهم ما لا يَضُرُّ، ولا ينفع آلهة يعبدونها، وهم قد رأوا من قدرة اللّه تعالى ما ضرب لهم به الأمثال فَعَجَبٌ قولهم؛ أيْ: فَتَعَجَّبْ أيضًا من قولهم[2].

توجيه الإعرابِ تقديمًا وتأخيرًا:

التَّسجيل من أوّل الأمر بكون قولهم ذاك أمرًا عَجيبًا

قوله تعالى: ﴿فَعَجَبٌ﴾ خَبَرٌ قُدِّم على المبتدأ ﴿قَوْلُهُمْ﴾ للقصر والتَّسجيل من أوَّل الأمر بكون قولهم ذاك أمرًا عَجيبًا، ويجوز أن يكون ﴿فَعَجَبٌ﴾ مُبتدأً لكونه موصوفًا بالوصف المُقدَّر كما أُشير إليه؛ فالمعنى: وإن تعجب؛ فالعجب الّذي لا عَجَبَ وراءه قولهم هذا؛ فاعجب منه. وعلى الأوَّل: وإن تعجب؛ فقولهم هذا عجبٌ لا عجب فوقه[3].

غرضُ تنكير العجبِ:

معنى التَّنكيرِ في قوله تعالى: ﴿فَعَجَبٌ﴾؛ أيْ: عظيم لا تتناهى درجاته في العِظَم[4]، فالتَّنكير للتَّهويل والتَّعظيم[5].

غرضُ الاستفهام ومعناه:

استنكارُ المُكابرِ كاملٌ في نُكرانه تامٌّ في باطلِه

الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا﴾ للإنكار الوقوعيّ لكمال الاستبعاد؛ لأنَّهم يُظهرون أنَّهم موقنون بأنَّهم لا يكونون في خَلقٍ جديد بعد أن يكونوا ترابًا، والقول المَحكيُّ عنهم، فهو في معنى الاستفهام عن مجموع أمرَيْن، وهما: كونهم ترابًا، وتجديد خلقهم ثانيةً، وليس مَدارُ إنكارهم كونهم ثابتيْن في الخَلق الجديد عند كونهم ترابًا - كما

(1) إسماعيل حقّي، روح البيان: 4/342.
(2) البغويّ، معالم التّنزيل: 3/7، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 13/70.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/6.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/282.
(5) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 7/445.

يُشعر به ظاهر مقالهم؛ فإنَّ هذا ليس بمُستبعَدٍ إنكاره - بل كونهم قابلين لذلك واستعدادهم له، كأنَّهم قالوا: (أإذا كُنّا تُرابًا أإنّا لَفي خَلْقٍ جَديدٍ بعده)، فالمقصود من ذلك العجب والإحالة[1]، وفيه من الدَّلالة على عتوِّهم وتماديهم في النَّكير ما لا يخفى[2].

توجيه القراءات القرآنيّة في ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا﴾:

المُنكرون مُتباينون في إنكارِ البعث مختلفون في مواقفِهم

اختلف القُرّاء في قوله تعالى: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۗ﴾، وفي مواضع من القرآن[3]، فمنهم مَن قرأ بالاستفهام في الأوَّل دون الثّاني، ومنهم بالعكس، ومنهم مَن قرأ بالاستفهام فيهما، فمَن قرأ بالاستفهام في الأوَّل دون الثّاني؛ فإنَّما القصد هو الثّاني؛ لأنَّهم إنَّما أنكروا كون الإنسان يصير ترابًا ثم يُبعث، وأمّا كونهم يصيرون ترابًا؛ فلا إنكار عندهم فيه[4]، ومَن قرأ بالاستفهام في الثّاني؛ فعلى الأصل، ومَن قرأ بالاستفهام فيهما؛ فزيادةُ تأكيدٍ بقصد المبالغة في الإنكار وشِدَّة الحرص على البيان[5].

واختلافُ القرّاء مردُّه إلى اتفاقِ وقوع الإنكارِ من هؤلاء المشركين، وبلاغةُ القراءات تكمنُ في بيانِ تبايُن المشركين، وأنَّهم على درجاتٍ متفاوتةٍ في الإنكار، وأنَّ مواقفَهم مُتعدِّدة، ففيه إيماءٌ إلى بقاء البغيض الألدِّ على كفرِه، ورجوع المتأرجح في الباطلِ إلى الحقِّ الأبلج.

براعةُ استعمالِ (إنْ) و(إذا) في سياقٍ واحدٍ:

العالم لا يتعجَّب إنَّما التَّعجُّبُ من الجاهل

استُعملت (إنْ) في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ﴾ مع أنَّ الأصل في (إنْ) أنْ تُستعمل في الأمور غير المحقَّقةِ الوقوع، واستعمالُها هنا

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/455، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/90.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/6.
(3) اختلف القُرّاء في هذا الاستفهام المُكرَّر، فقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وحمزة، جميعًا بالاستفهام، وقرأ نافع والكسائي ويعقوب بالاستفهام في الأول، وبالإخبار في الثّاني، وقرأ ابن عامر وأبو جعفر بالإخبار في الأوّل والاستفهام في الثاني، يُنظر: ابن الجزريّ، النَّشر: 1/373.
(4) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/321.
(5) ابن الأنباريّ، البيان في غريب إعراب القرآن: 2/48، والسَّمين الحلبيّ، الدّرّ المَصون: 7/19.

لنُدرة تعجُّبه ﷺ، فكأنَّ حصول التَّعجُّب عنده من الأمور النّادرة، إذ التَّعجب إنَّما يحصل عند مَن يجهل الأسباب، أمّا مَن يعلمها؛ فلا، والرَّسول ﷺ يُزَوَّد باستمرار بالمعارف الربّانيَّة عن طريق الوحي، فقلَّما يجهل أسباب الأشياء، واستعملت (إذا) في قولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا﴾؛ لأنَّ مصير النّاس إلى تراب من الأمور المُحقَّقة الوقوع، فأداةُ (إذا) تُستعمل غالبًا في الأمور المُحقَّقة لا المشكوك فيها.

دلالة تقديم الظَّرف:

تقديم الظَّرف في قوله تعالى: ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾؛ لتقوية الإنكار بالبعث بتوجيهه إليه في حالة منافية له[1].

دلالة التَّعبير بالخلق الجديد:

جاء التَّعبير بقولِه تعالى: ﴿خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ دون أن يُقال: (أنُبعث أحياءً ونحو ذلك)؛ لما في هذا التَّعبيرِ من الكشفِ عمّا يجول في سويداءِ قلوبِهم، فإنَّ الخلق الجديد هو الخلق الّذي كانوا عليه سابقًا، لكنَّه جديدٌ باعتبارِ إعادةِ الأبدانِ لما كانت عليه مع تجديدٍ لها، ففي هذا التَّعبير إيماءٌ إلى حقائق تسود وأفكار تجول، منع من اعتقادِها باطلٌ زائف وكبرٌ أعمى.

تعبيراتُ القرآنِ موحيةٌ بما يجولُ في الصُّدور

علَّة الفصل بين الجُملِ:

فُصل قوله تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾ عن السّابق على سبيل الاستئناف البيانيِّ، ومعنى الآيةِ؛ أيْ: أولئك الّذين جَحَدوا قُدرة ربِّهم، وكذَّبوا رسوله على ما عاينوا من آياته الكبرى الّتي تُرشدهم إلى الإيمان، وتهديهم سبيل الرَّشاد لو كانوا يُبصرون هُم الّذين تمادوا في عِنادهم وكُفرهم، فإنَّ إنكار قُدرته تعالى إنكار له؛ لأنَّ الإله لا يكون عاجزًا[2]، وهذا يَدُلُّ على أنَّ كُلَّ مَن أنكر البعث

سببُ إنكارِ البعثِ على الحقيقةِ الكفرُ بالله تعالى

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/6.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 13/70.

والقيامة فهو كافر[1]؛ فكأنَّ سائلًا سأل: ما سببُ إنكارِهم البعثَ بعد الممات فجاء الجواب بهذه الجملة السّامية مُبيِّنًا سبب الإنكار: وهو أنَّهم كفروا بربهم، وكفروا بقدرته القاهرة[2]، فَبَيْنَ هذه الجُملة وسابقتها شبه كمال الاتصال لذلك فُصِلَتْ عنها.

بلاغةُ استعمالِ اسمِ الإشارةِ:

معنى اسم الإشارةِ في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ﴾؛ أي: الّذين جمعوا أنواعًا من البُعْدِ عن كُلِّ خير[3]، والإشارة بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ للتَّنبيه على أنَّهم أحرياء بما سَيَرِدُ بعد اسم الإشارة من الخبر لأجل ما سبق اسم الإشارة من قولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ﴾، وتلك المقالة إنَّما هي تقرير مُصَمّم على الجحد والإنكار للبعث بعد أن رأوا دلائلَ الخلق الأوَّل، فَحَقَّ عليهم بقولهم ذلك حُكمان: أحدهما: أنّهم ﴿كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ﴾؛ لأنَّ قولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ﴾ لا يقوله إلّا كافر باللّه؛ أيْ: بصفات إلهيَّته؛ إذ جعلوه غيرَ قادر على إعادة خلقه، وثانيهما: استحقاقهم العذاب[4].

الكافرُ باللهِ تعالى بعيدٌ عن الحقِّ، بعيدٌ عن مواطنِ الخيرِ في الدُّنيا والآخرة

سرُّ التَّعبير بالكُفر دون الشّرك:

جاء ذِكرُ الكفرِ دون الشِّركِ في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ﴾، ومعناه: جحدوا بوحدانيّة اللّه تعالى[5]، وغَطَّوا كُلَّ ما يجب إظهاره بسبب الاستهانة بالّذي بدأ خلقهم، ثُمَّ ربّاهم بأنواع اللُّطف، فإذا أنكروا معادهم؛ فقد أنكروا مبدأهم[6]، فعبَّر النَّظم الكريم بالكُفر دون الشِّرك لما في الكُفْرِ من معنى الجَحْدِ

الكافر يسعى إلى تغطية الحقِّ ما استطاع إلى ذلك سبيلًا

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/9.
(2) محمد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3898.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/282.
(4) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 3/295، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/90.
(5) السَّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/217.
(6) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/282.

والتَّغطية، فلظهور هذه الحقيقةِ، وبروزها أتمَّ بروز، كان ذِكرُ الكفر مناسبًا لما فيه من محاولة تغطيةِ الحقائق بإنكارٍ زائفٍ.

دلالة إيثارِ عنوان الرُّبوبيَّة:

الاستدلالُ على المُنكرين بما يزعمون اعتقاده

التَّعبير بلفظ الرّبوبيَّة في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ﴾ له سرُّه العميق؛ لأنَّهم يكفرون بقدرته وهو الّذي أنشأهم وربّاهم، ويقوم على أمورهم، فكيف يعجز عن حالٍ من أحوالهم؟[1] فهؤلاء المكذِّبون لك - يا مُحمَّد - والمُنكرون للبعث يَكْفرون بالرُّبوبيَّة المقتضية للخَلق والمُلك والتَّدبير، فذكرُ عنوان الرُّبوبيَّة لبيانِ سوء صنيعِهم مع خالقِهم ﷻ، ففيه تنبيهٌ على أنَّ مقتضى الرُّبوبيَّة هو عكس ما أنكروه، فهو استدلالٌ عليهم بما يزعمون اعتقادَهُ.

معنى العطفِ بين الجُملِ:

استحقاقُ الجزاءِ الأخرويّ بسببِ الكفر الدُّنيويّ

عَطْفُ جملة ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ﴾ على سابقتها مُفتتحةً باسم الإشارة لمثل الغرض الّذي افتتحت به الجملة قبلها؛ فإنَّ مضمون الجُملتيْن اللَّتيْن قبلها يُحَقِّقُ أنَّهم أحرياء بوضع الأغلال في أعناقهم، وذلك جزاء الإهانة[2]، فلمّا كفروا بربِّهم في الدّنيا، وأنكروا البعث، استحقوا ما ينالونه في الآخرة من الجزاءِ العادل.

براعةُ استعمالِ ﴿ٱلۡأَغۡلَٰلُ﴾ بين الحقيقة والمجاز:

تشبيه حالِ الكافرين في الامتناع عن الإيمان بحال المُصَفَّد بالأغلال

قوله تعالى: ﴿ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ﴾، فيه احتمالان: الأوَّل أن يكون المُراد وصفهم بذلك في الدُّنيا، فهو تشبيه لحالهم في امتناعهم عن الإيمان وعدم الالتفات إلى الحقِّ بحال طائفة في أعناقهم أغلال وقيود لا يمكنهم الالتفات معها، فلا يتحرَّكون إلّا تحت سيطرة هذه الأغلال، كقول الشّاعر:

كيف الرَّشاد وقد خُلِّفْتُ في نَفَرٍ *** لهم عن الرُّشد أغلالٌ وأقياد

(1) محمَّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3898.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/91.

كأنَّه قيل: أولئك مُقيَّدون بقيود الضَّلالة لا يُرجى خَلاصهم[1].

ففي الكلام استعارة تصريحيَّة أصليَّة، وقد يكون التَّشبيه من قبيل تشبيه هيئة بهيئة على الاستعارة التَّمثيليَّة بجامع عدم رجاء الخلاص، والتَّمكُّن في الهلاك، فإنَّ وجود تلك الموانع للقلب والحواسِّ وتسلُّطها عليها كوجود الأغلال ووضعها في الأعناق، يقادون بها، ولا يمتنعون، أو يربط أيضًا الأرجل والأيدي، ولا يجدون التَّصرُّف حيث شاؤوا[2].

حمل مدلول (الأغلال) على الحقيقة وعيدًا للكَفَرَةِ الجاحدين

الاحتمال الثّاني: أن يكون المُراد وصفهم به في الآخرة، والكلام إمّا باقٍ على حقيقته؛ فإنَّهم يوم القيامة عند العرض للحساب توضع الأغلال في أعناقهم، كما يُقاد الأسير الذَّليل بالغلِّ، كما قال سبحانه: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾ [غافر: 71][3]، وفي هذا وعيدٌ بسوقهم إلى الحساب سوق المَذَلَّة والقهر، وكانوا يضعون الأغلال للأسرى المُثْقَلين[4]، وعلى هذا فالأغلال الّتي سُيجازَون بها يوم القيامة على كفرهم ستُطوِّق أعناقهم لا محالة، ونزل الشّيء الّذي لا بد من وقوعه منزلة الشّيء الواقع في الحال، فقال تعالى: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ﴾، فيكون ما سيُلاقون في الآخرة جزاء لما طوّقوا به أنفسهم في الدُّنيا.

بلاغة القلب:

بيان أنّ الأغلال محيطة بأعناقهم كإحاطة الظَّرف بالمظروف

قوله تعالى: ﴿ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ﴾ من باب القلب[5]، والأصل فيها: (أولئك أعناقهم في الأغلال)؛ لأنَّ الأغلال محيطة بأعناقهم،

(1) الشِّهاب الخفاجيّ، عنايةُ القاضي: 5/220، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/100.
(2) أطْفيشْ، تيسير التّفسير: 7/230.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/100.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/91.
(5) القلب: جعلُ أحد أجزاء الكلام مكان الآخر، والآخر مكانه، على وجه يثبت حكم كلّ منهما للآخر، والظّاهر أنّه من الحقيقة، وربما يدّعي أنّه من المجاز العقليّ، وهو من مباحث المعاني والبديع باعتبارين. يُنظر: القزوينيّ، الإيضاح: 2/97.

كإحاطة الظَّرف بالمظروف، فأعناقهم هي المظروف، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾﴾ [الحاقة: 32]، المعنى: اسلكوا فيه سلسلة؛ أي: أدخلوا في عنقه سلسلة[1].

دلالة تكرار ﴿أُولَٰئِكَ﴾ في الآية الكريمة:

إبعادُ المُنكرين للبعثِ إبعادًا تلو الإبعاد وتهويل حالهم وتشنيعُ مقامهم

في تكرار الإشارة إليهم في قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾، وفي قوله تعالى: ﴿وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾، وفي قوله تعالى: ﴿وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ في هذه الجُمل المتتابعة، فَضْحٌ للمُنكرين على رؤوس الأشهاد، وشَدٌّ لوثاق المُمسك بهم من أعناقهم، حتَّى لا يُفلتوا، وحتَّى لكأنَّ كُلَّ إشارة من تلك الإشارات الثَّلاث طوقٌ من حديد، يُطوَّقون به، وإنَّ ذلك لَسِمَةٌ من السِّمات الدّالّة عليهم بين أهل المحشر، فليس ثمَّة شَكٌّ في أمرهم، أو في التَّعرُّف على ذواتهم، وقد وُسموا بتلك السِّمات الفاضحة، وفي الإشارة إليهم بأنَّ الأغلال في أعناقهم، وبأنَّهم أصحاب النّار، مع أنَّهم لم يُبعثوا بعدُ، ولم يُساقوا إلى جهنَّم بَعْدُ، حُكمٌ قاطع من الله عليهم بهذا، ولكنَّه مُؤَجَّلُ التَّنفيذ إلى يوم البعث[2]، فإعادَة اسم الإشارةِ ثلاثًا لِلتَّهْويلِ[3].

دلالةُ اسمِ الإشارةِ:

جيء باسم الإشارة ﴿وَأُولَٰئِكَ﴾ الّذي هو للبَعيدِ في قوله: ﴿وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ للدَّلالة على بُعدِ مَنزِلَتهم في السّيئاتِ والخَطايا الموجبة للخُلود في النّار.

سرُّ استعمال لفظ ﴿أَصْحَابُ﴾:

مقتضى الصُّحبة المُلازَمة كما أنَّ مقتضى الخلود التَّأبيد

في قوله تعالى: ﴿وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ذُكر لفظ أصحاب دون الاكتفاء أنَّهم في النّار خالدون، وذلك لبيانِ أنَّ

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/416.
(2) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/72.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/91.

خلودَهم خلودُ صحبة وملازَمة، فأولئك أهل النّار الملازمون لها، المستحقّون دخولها، الماكثون فيها أبدًا لا يحولون عنها، ولا يزولون بسبب كفرهم وإنكارهم البعث وتكذيبهم الرّسول[1]، فلمّا كانت الصُّحبة تقتضي المُلازمة؛ صرَّح بها[2]، ففي هذا التَّعبير دلالة نفسيَّة تقتضي تعذيب المتحدَّث عنهم، بالإضافةِ إلى عذابِهم الحِسّيِّ.

سرُّ التَّعبير باسميَّة ﴿أَصۡحَٰبُ﴾ دون الفعل:

الـدَّلالـة على الاسـتـقـرار والمُلازمة الثّابتة الدّائمة

استُعمل لفظ ﴿أَصۡحَٰبُ﴾ بالاسميَّة في قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، دون أن يقول: (وأولئك يصحبون النّار)؛ لدلالتها على الثُّبوت؛ لذلك جاءتْ مُشتقّاتُها في القرآن الكريم اسميَّةً أكثرَ منْ مجيئها فعليَّة؛ لأنَّ الصُّحبة أمرٌ إذا حصل؛ فإنَّه يستمرُّ، ويستقرُّ، ويدومُ، والصّاحبُ مَن لازَم أبدًا[3]، فالاسميَّة أليقُ بهذا اللَّفظ؛ لذلك جاءَ هذا المعنى في أغلبِ وُروده في آيات القرآن بالاسميَّة، ومنْه هذه الآية، دلالة على ثبات حال الموصوفين بها.

علَّة الفصلِ عن السّابق:

تـنـزيـل هـذه الجملة منزلةَ البيانِ مِنَ الأولى وأنَّ صحبةَ الكافرين للنّار أبديَّةٌ

فُصِلَ قول الله تعالى: ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ عن قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾؛ لأنَّ بينَهما كمالَ الاتِّصالِ؛ فإنَّ الجملة الثّانيةَ، ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، نُزِّلت منزلةَ البيانِ مِنَ الأولى[4]؛ إذ دُخولُ طائفةٍ ما النّارَ بحيثُ يَصحَبونَها، لا يَلزَمُ مِنهُ أن تكونَ صُحبَتُهُم لها أبديَّةً، فجاءت الثّانيةُ مبيِّنةً مُدَّةَ المُصاحبة.

نُكتَةُ تَقديمِ الجارِّ والمَجرورِ ﴿فِيهَا﴾:

إفـادةُ تأكيد التَّخصيصِ بعد توكيد المُلازَمة

قدَّم النَّظم الكريم الجارَّ والمجرور ﴿فِيهَا﴾، ولم يَقُلْ: (هُم خالِدونَ فيها)؛ لإفادة التَّخصيص؛ فقد تَأكَّد خلودهم بضمير

(1) وهبة الزُّحيليّ، التَّفسير المنير: 13/111.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/283.
(3) الرّاغب، المُفردات: (صحب).
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/91.

الفعل ﴿هُمْ﴾، كما تأكَّد اختصاصهم بها بتقديم الجارِّ والمجرور على ﴿خَٰلِدُونَ﴾؛ أيّ: هم وحدهم الخالدون فيها، وخلودهم مقصور عليها، فلا حول لهم ولا قوّة[1].

بلاغةُ الاحتراسِ بذكرِ الخلودِ بعد الصُّحبةِ:

صُحبةُ النّارِ دليلُ المُلازَمةِ، والخُلودُ دليلُ الدّوامِ

أكَّد النّظْم الكريم خلودهم في النّار بالتّعبير عنهم بأنَّهم أصحاب النّار خالدون فيها؛ أي: الّذين يلازمونها بالصُّحبة الدّائمة المستمرّة[2]؛ لأنَّ المصاحبةَ تقتضي طولَ لُبثٍ[3]، ولا يُشترطُ في الصُّحبةِ الخلود، فقد يعقبُها الفِراقُ، وأمّا الخلودُ؛ فهو دائمٌ، فزيادَةُ لفظِ الخلودِ دليلٌ على أنَّ هذه الصُّحبةَ دائمة لا انقطاع فيها، فيكون ذِكرُ الصُّحبةِ عذابًا معنويًّا، وذِكرُ الخلود عذابًا حِسيًّا، وذكرُه بعد الصُّحبة احتراسٌ عن توهُّم انقطاعِ العذابِ.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

الصّاحِب والصَّديقُ:

الصّداقةُ اتِّفاقُ الضَّمائرِ وصِدْقُ المَشاعِرِ، والصُّحْبَةُ مُطْلَقُ الرُّفْقَةِ

الصّاحِبُ مِنَ الصُّحْبَةِ في الزَّمانِ والمَكانِ، وقَدْ تَكونُ صُحْبَتُهُ مؤقَّتةً في الطَّريقِ مِثْلَ العَبْدِ الصّالِحِ مَع موسى: ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى﴾ [الكَهْف 76].

أوْ في مَكانٍ مِثْلَ يوسُفَ مَعَ صاحِبَيْهِ في السِّجْنِ: ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾ [يوسُف 39]، وقَدْ تَكونُ الصُّحْبَةُ مُؤَبَّدَةً مِثْلَ الوالِدَيْنِ، قال تَعالى: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لُقمان: 15]، ومِثْلَ الزَّوْجَةِ الّتي تَصْحَبُ الزَّوْجَ طيلَةَ عُمُرِهِ، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾ [عَبَسَ: 34 - 36].

---

(1) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3898.

(2) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3900.

(3) الرّاغب، المُفردات: (صحب).

أمّا الصَّديقُ؛ فَمِنَ الصَّداقَةِ: وهيَ اتِّفاقُ الضَّمائِرِ وصِدْقُ الاعْتقادِ على المَوَدَّةِ[1]، وفي التَّنْزيلِ جَوازُ الأكْلِ مِنْ بَيْتِ الصَّديقِ واعْتِبارِهِ ضِمْنَ الأقارِبِ، قال تَعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ [النّور: 61]، وقالَ تعالى يَصِفُ حالَ المُشْركينَ، وهُم في النّارِ يَصْطَرِخونَ، ويتَحَسَّرونَ على فَقْدِ الأصْدِقاءِ: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الشُّعَراء: 100 - 101]، فمُصْطَلَحُ الصّاحِبِ أعَمُّ مِنَ الصَّديقِ، والصَّداقَةُ مِنْ دَرجاتِ الصُّحْبَةِ.

(1) الرّاغب، المُفرداتُ: (صدق)، والعسكريّ، الفُروقُ اللُّغويّة، ص: 285.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرّعد الآية 15
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرّعد الآية 15
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 23 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-20-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 23 : المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرّعد الآية 15.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-20-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8086351 بتاريخ 2024/02/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»